القرآن

وصفه ـ هدايته ـ أثره ـ إعجازه

تأليف

محمد الخولي

الكتاب:القرآن.. وصفه – هدايته – أثره – إعجازه

الكاتب:محمد الخولي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم
– الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الخولي، محمد
القرآن.. وصفه – هدايته – أثره – إعجازه/ محمد الخولي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩١ ص، ١٨*٢١سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٢٨٧ – ٩٩١- ٩٧٧- ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع :١٧٩٢٦ / ٢٠٢١

القرآن
وصفه - هدايته - أثره - إعجازه

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

هذه الرسالة الصغيرة الحجم ذات معاني كثيرة ، وهي بعبارة أوضح مفتاح لأسرار كتاب الله المكنون والقانون السماوي والدستور الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، تنزييل من عزيز حكيم ، عرف لنا الحياة الدنيا فلم يكبر من شأنها والآخرة فحيرها عن سابقتها.

والرسالة من وضع الشيخ الراحل مُحَّد الخولي أحد أبرز خطباء ووعاظ عصره ، فهو رجل فذ كان مدرسا بالقضاء الشرعي ودار العلوم العليا، وقد كانت وزارة المعارف المصرية طلبت إليه إلقاء محاضرة في القرآن الكريم ولكن المنية وافته وهو في إعدادها ، وقد رأينا لما في هذه المحاضرة من الفائدة العامة أن ننشرها ، وقد ذيلت بكلمتين إحداهما لحضرة مُحَّد جاد المولى بك في أثر القرآن الكريم في الأحوال الخلقية والأخرى من نظم الشيخ حسين خليل شمس الدين لتكونا متممتين لما بدأ به الفقيد رحمه الله رحمة واسعة .

الناشر

١- القرآن الكريم .. وصفه

القرآن هو ذلك الكتاب الذي أنزله الله منجما في اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما تبتدئ من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه في غار حراء أول ما نزل من القرآن "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) [١] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) " (سورة العلق)

وتنتهى بتاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر من السنة الثالثة والستين من ميلاده ﷺ حيث نزلت آية الختام "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (٣)"(سورة المائدة)

أنزل الله على صفيه من خلقه ومجتباه من عباده مُحَمَّد بن عبد الله اليتيم الأمي الذي لم يذهب إلى مكتب أو مدرسة ولم يجلس إلى أستاذ يأخذ عنه ويتعلم منه– اللهم إلا أستاذه جبريل الذي كان

(١) العلق الدم الجامد الذي تعلق بعضه ببعض

يدارسه القرآن بعد النبوة– وما كان بديار قومه معاهد للتعليم ولا أساتذة للتربية وما رحل في طلب العلم إلى غيرها من بلاد الأمم الأخرى إن كانت الا رحلتان قصيرتان إلى بلاد الشام أحداهما مع عمه أبي طالب في تجارة له وكان مُحَمَّد يومئذ حدثا والأخرى في تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة– أنزله الله على هذه النفس الفطرية فنطقت بالآيات البينة والحكم البالغة وصدرت عن الأمية قواعد الصلاح فكان ذلك عند أولى العلم المنصفين آية واضحة وحجة دامغة على أن القرآن صنع الله لا صنع مُحَمَّد وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) (سورة العنكبوت) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا (سورة الشوري) وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)

***

القرآن هو الكتاب الذي خط بقلم الحكمة الإلهية وأملى من علم الله المحيط وحمله الملائكة الإطهار حتى وصلوا به إلى مُحَمَّد المعروف بالصدق والأمانة فتلقفه عنهم وبلغه للناس كما بلغه وكما

كتبه ربه لا تغيير ولا تبديل ولا دس ولا تحوير إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) سورة الواقعة (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) سورة الحجر

القرآن هو الكتاب الذي انتظم من العقائد الصحيحة والآداب الحميدة والأخلاق العالية والأعمال الصالحة ما هو كفيل بسعادة البشر في دنياهم الحاضرة وحياتهم الثانية لو أنهم دانوا بما أوجب وتأدبوا بما سن وتخلقوا بما بين وعملوا بما شرع فهو الدواء لعلل البشر النفسية، وأمراضهم الخلقية ومشاكلهم الاجتماعية لو أنهم تجرعوه وما هو بالمر المذاق ولا بالصبر الزعاف ولكنه العذب الفرات لمن تناوله بشهية وتقبله بنفس رضية (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) الإسراء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ

(1) ثقل وصمم

عَمًى[١]أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

القرآن هو ذلك التشريع الفسيح الرحب الوسيع الذي يتسع للناس جميعاً مهما اختلفت لغاتهم وتباينت بلادهم وتفارقت عادلتهم وتنافرت طباعهم لأنه لا يكلف الناس مالا يطيقون، ولا يدعوهم إلى مآبه يتحرجون (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ[٢]) ولا يقف في سبيل تمتعهم بالطيبات وتزينهم بمختلف الزينات ما آمنو وعملوا الصالحات (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) سورة الأعراف: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢): سورة البقرة: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ [٣]فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) سورة المائدة: ثم هو لا يأمر الا بمعروف ولا ينهى إلا عن منكر ويقدر الحاجات والضرورات ويسن لها من الشرائع والإحكام ما يذلل صعابها

---

(١) معمى مبهم

(٢) ضيق

(٣) اثم

ويتقى به ضرها ويدع الناس في بحبوحة ورخام وسعة وهناء (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) من آية (١٨٥) سورة البقرة (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ[١] أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) من آية (٦): سورة المائدة: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٤٥): سورة الأنعام:

ومن الآيات البينة على أن القرآن شريعة عامة للناس كافة من يوم أن بعث محمد ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إن الأشياء التي لا يؤثر فيها مر الزمان ولا تختلف باختلاف الأقوام بينها القرآن تفصيلا وما يختلف باختلاف الأحوال ويتغير بتغاير الأمم وضع أصوله العامة وقواعده المطردة وترك التفصيل والتطبيق إلى ما تقضيه المصلحة ويلائم الحاجات الوقتية والظروف الخاصة

---

(١) جاء من الغائط قضى حاجته والغائط المكان المنخفض كانوا يقضون فيه حاجتهم.

ولذلك تجد أحكام العبادات مفصلة في القرآن المشروح بعمل الرسول ﷺ ففيه بيان الصلاة والصيام والحج وكذلك بيان الميراث والزواج والطلاق والعدد. أما العقائد فقد تعرض لها القرآن بياناً واستدلالا من توحيد الله وذكر صفاته والإيمان بفناء النوع الإنساني وبعثه ونشره وحشره وسؤاله عن كل ما عمل ومجازاته بالجنة أو النار وكذلك الإيمان بالملائكة والكتب والرسل الخ لان هذه حقائق ثابتة كالعيادات لا تحوير فيها ولا تغيير فنعس عليها القرآن تفصيلا أما المعاملات كالبيع والإجارة والمضاربة والهبة والقيام على مال اليتيم فمنها ما ذكر القرآن له أحكاما عامة ومنها ما لم يذكر شيئا عنه لتوضع أحكامه بحسب أصول الشريعة العامة وقواعد العدالة مراعى فيها مقتضيات الزمان وعرف الأقوام فما تعرض له إجمالا البيع والإجارة والتصرف في مال اليتيم، ففي البيع جاء قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) سورة النساء (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا[١] بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) سورة البقرة

[١] أي تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام أو تقدموا هار شوه لهم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٩) سورة الجمعة

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) من آية (٣٧) سورة النور.

وجاء في الإجارة عبارة عامة مثل قوله تعالى (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) من آية ٦ سورة الطلاق (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ) من آية (٢٧) سورة القصص

وجاء في التصرف في مال اليتيم (ابْتَلُوا[١] الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آَنَسْتُمْ[٢] مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا[٣] أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) (٦) سورة النساء

---

(١) اختبروا

(٢) عامتم

(٣) أي مبادرة لكبرهم فيقولون نأخذ من أموالهم ما نشتهى قبل أن يكبر وافينتز عوها من أيدينا

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) من آية (١٥٢) سورة الأنعام

فتراه أمر باختبار اليتيم ولم يبين طريق الاختبار وأمر بدفع المال إليه إذا بلغ النكاح– ولم يعين وقته– وآنسنا منه الرشد، وفهي عن أكل شيء من ماله ومنع الوصي إن كان غنيا من أخذ الأجر وإن كان فقيرا أجاز له الأكل بالمعروف فترك تقدير الأجر أو الأكل إلى العرف، ثم أمر الوصي بالإشهاد عليه عند دفع المال إليه تبرئة لذمته ومراعاة لمصلحته

وانظر موقع قوله تعالى (وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) مما سيفها فالله من وراء الخبراء والقضاة والحكام محاسب الأوصياء حسابا عسيرا فلئن أغفلوا شيئا فما ربك بغافل فليراقبوا الله ربهم ثم انظر إلى الإجمال في قوله (بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ). فذكر أن التصرف في ماله بالطرق الحسنة ولم يفضل هذه الطرق لأنها متشعبة ومختلفة باختلاف العصور والأمم

ومما لم يتعرض له القرآن المضاربة أو القراض فترك تفصيل أحكامه لأولي العلم الراسخين والقضاة المجتهدين يضعونها بحسب حاجات الزمان مع ملاحظة أصول الشريعة، ولأن الجرائم لا

يحصى عددها وللزمان كل يوم فيها محدثات وللناس فيها تفنن ولكل جريمة عقاب مناسب وما جزاء السيئة الا مثلها، لأن الجرائم بهذه المثابة لم يتعرض القرآن لتحديد العقوبات لها اللهم الا جرائم خاصة اقتضت حكمته تحديد عقوباتها الدنيوية وهي السرقة والزنى والقذف والقتل والتعدي على الأطراف، وما عداد لك فوضع له قواعد عامة يطبقها ولاة الأمر من المسلمين والأئمة المجتهدون مثل قوله تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١)سورة الشورى

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٣٤) سورة المائدة

القرآن هو الكتاب الذي لم يذكر العقائد والآداب والإحكام جافة كما ترى في كتب الكلام والفقه والأخلاق خصوصا ما ألفه المتأخرون– بل وضع في جانبها وفي خلالها ما يدعو إلى احترامها والعمل بها أثمارا بأمرها وانتهاء عن نهيها فأحاطها بضروب من

الترغيب والترهيب فضرب الأمثال للعالمين وسرد القصص للمعتبرين وبين الحكم والمصالح للعقلاء المفكرين ورتب على العمل بها من السعادة في الدنيا والآخرة ما يغرى الراغبين ويلهب النفعيين فانظر قوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢٦١) سورة البقرة

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

() أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ[١] مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَار (٢٦)سورة إبراهيم

وذكر لنا من قصص آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى وغيرهم ما كله عبر وعظات. وانظر إلى

---

[١] قطعت

قوله تعالى في سورة هود بعد أن حكى أنباء جمع من الأنبياء: " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ[١] عَنْهُمْ آَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ[٢] (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ" وترى الله يقول في سورة المائدة بعد أن ذكر أحكام الوضوء والغسل: " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" ويقول في سورة النساء تعليلا للنهى عن نكاح ما نكح الآباء: " وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا" ويقول: " وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا" ويقول في تعليل النهى عن تعاطى الخمر والميسر الخ: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ" وجاء في القرآن كذلك: " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا" " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

[١] ما أغنت عنهم أي ما نفعتهم

[٢] هلاك م– ٢ –القرآن

خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" " وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" " وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" .. إلى غير ذلك من التعليلات والحكم الكثيرة التي أردفت في القرآن بالأوامر والنواهي، ومن الآيات التي رتبت السعادة في الدنيا والآخرة على العمل الصالح قوله تعالى: " وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" " وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا" " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" " فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا" " وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ" " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " " وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ" " إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا" والقرآن مملوء بأمثال هذه الآيات وليس غرضنا.

٢- هدايته

القرآن هو الذي سلك للتأثير في النفوس وهدايتها، إلى ما يحييها والأخذ بحجزاتها عما يشقيها- مسلكا خطابياً أخاذاً جذاباً- قد ساير الحقائق جنباً لجنب ولم يهم في أودية الخيال كما يهيم الشعراء وأكثر الخطباء، بل كان في بيانه الخلاب وعياراته العذبة، مقرراً للحقائق وداعمها بالآيات البينة، والحجج الناطقة التي لا تقبل في شرعة الأنصاف جدلا ولا مناقشة ولا حوارا، ولا مراجعة، ولذلك وصفه الله بقوله: (هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) "البقرة" فذكر أنه بينات وبراهين ساطعات، ولكن لا كبراهين المنطقيين التي يشكلونها بأشكالهم المعروفة فإنها براهين جافة. ربما مجتها النفوس واستثقلتها الطباع، وربما مكنت العقول في تعرفها وتفهم الصلة بين أولها وآخرها واعتصار نتائجها من مقدماتها- ربما مكنت وقتاً طويلا، ولا كذلك براهين القرآن فأنها لطيفة الملمس، طيبة المخبر، واضحة المقصد، تجاري الفطر وتساير العقول، مع تأثير في النفس غريب يأخذ بها إلى مراتب الكمال.

فبينات القرآن- مع ما فيها من التفرقة بين الحق والباطل- هادية مرشدة تسلك بالإنسان سبيل الخير وتأخذ به عن مواطن

الشر.

وإني لمتدبر معك أيها القارئ الآيات الأولى من سورة النحل- إلى قوله تعالى (إنه لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) لتعرف صدق ما ذكرت وبرهان ما ادعيت. فإن هذه الآيات سيقت لا بطال أن يكون لله من خلقه شريك يعبد كما يعبد ويدعى كما يدعى، أو يتقرب به إلى الله زلفى.

فتراه في أول سورة النحل يقول: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) فبدأ كلامه بالوعيد وأنه مدرك المشركين لا محالة وقال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) فتره نفسه عن شركائهم ونبا بشأنه عن شأنهم، وبين أن القرآن أنزله فيما أنزل على من تحيره من عباده ليرشدهم إلى مصالحهم ويحذرهم بأس الله إن لم يرعوا عن شركهم (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) ألا فليتقوه وليخافوه ويحذروه فإن أخذه شديد، وإن عذابه أليم.

ثم أخذ في إقامة الحجة على إبطال الشركاء، فذكر أنه خلق السموات والأرض بالحق ثم نزه نفسه عن الشريك وكأنه يشير بهذا التعقيب إلى أن من هذا صنعه لا ينبغي أن يشرك به خلقه.

ثم ذكر خلقه للإنسان من النطفة وتربيته له حتى صيره بشراً سوياً، فكان عليه أن يشكر له نعمة التربية ولكنه كفر بها وأصبح لربه خصما مبيناً بدفاعه عن الشرك ومحاماته عن الأنداد. وذكر عقب ذلك خلقه للأنعام. شارحاً مالنا فيها من المصالح والمنافع بأسلوب بديع، وخلقه للخيل والبغال والحمير وما أعدت له، فإنه يخلق ما لا تعلمه مما حدث به العصر من دراجات وسيارات، وطيارات وغواصات وقطر وبأخرات، وكأنه بذلك يبين أنه قائم بتدبير شأن الإنسان وسد حاجه، وما اتخذوه من دون الله. لا يقوم بشيء من ذلك فلم يشرك به ثم ذكر هذه الجملة: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ) ليبين نعمة أخرى له: نعمة الهداية وبيان الطريق الحق الذي إذا سلكه الإنسان نجا، وإن تنكبه ضل وغوى.

ثم رجع إلى تعداد نعمه، فذكر الماء وآثاره الجملة من إحيائه للإنسان وإنبائه للأشجار التي يسيم فيها الحيوان، وفصلها بالزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، وحثنا على التفكر فيها الاستنباط العبر منها والوصول إلى معرفة بارئها المعرفة اللائقة بجلاله وعظمته وأنه جدير بالتوحيد والإفراد بالمبادة والخضوع، وذكر خلقه لليل والنهار- الأول للإنسان لباس، والثاني له معاش- وخلقه للشمس والقمر، اللذين هما آيتا الليل والنهار،

وأنهما والنجوم خاضعات لأمر الله تعالى لا تخرج عن نظامه الذي أبدعه، ولا عن سننه الذي وضعه. وفي ذلك آية بينة، لمن عقل وتفهم وتبصر وتدبر.

وذكر بعد ذلك أنه خلق في الأرض أشياء مختلفة في الأشكال والألوان والطبائع والمنافع، وأن فيها آية للمتفكرين وذكر البحار وثمراتها من الأسماك والحلى، وسير الفلك فيها لابتغاء الرزق والعلم، وذكر الجبال والأنهار، والسبل التي يهتدى بها السائر كما يهتدى بالنجوم.

ذكر كل هذه المخلوقات العظيمة، التي غمر الإنسان بمزاياها ومنافعها وسلطه على تسخيرها في تدبير شؤونه، وتوفير حاجاته ذكرها لإبطال الشركاء كما نبينه ولكنه لم يسردها سردا، ولم يعدها عدا كما نعد الأشياء، بل أفادك في الأثناء معلومات قيمة، وثمرات طيبة، وحثك على أن تنفذ منها إلى عظمة مبدعها. فلم يكن العد بذلك ثقيلا على النفس بل كان حلواً مستمراً شهياً مستطاباً.

ثم خلص من عد المخلوقات إلى هذه الجملة الحكيمة، التي لا تستقر إلا في هذا الموضع: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) (النحل) فأتم بذلك الحجة على أن من لا يملك لنفسه ضر أولاً نفعاً ولا

يخلق شيئاً لا ينبغي أن يكون لله نداً " إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا " مريم. فألقم المشركين بذلك حجرا ولم يبق لهم عذراً.

وكأني بالقارئ، وقد وصل إلى هذه الجملة، وتدبر ما سبقها وفكر فيها تقدمها وقف مبهورنا صاغراً أمام هذه الطريقة المثلى التي سلكها القرآن في حجاجه، وبرهن بها على ضدك قضاياه، وصحة نظرياته، طريقة تخولها طرق المناطقة ساجدة، مسيحة لله ممجدة.

وانظر كيف قبها الله بقوله: (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل) حثاً لنا على الأذكار والاعتبار، فإن الذاكرين المفكرين عم الذين يقفون على أسرار القرآن، وهو الذي تخالط حلاوته قلوبهم، وتروى منه أفئدتهم، وتحيا به عقولهم.

أما الذين يمرونه على ألسنتهم مراً لا يجاوز ترافيهم. ولا يعدو آذانهم، فأولئك في قلوبهم عمى، لا يبصرون في القرآن هدى.

وكما عدد كثيرا من النعم قبل هذه النتيجة الحكيمة عقبها بأن نعم الله لا تقف عندما فصل وبين، بل هي لا يحصيها العد، ولا يضبطها القلم. فكيف يسوي رب هذه نعمه بمخلوق هذا شأنه؟ إن ذلك وزر كبير وظلم عظيم يستدعى مؤاخذة عاجلة

ومناجزة قاتلة. ولكن الله رحيم بعباده يؤخر عقابهم رجاء أن يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم.

ثم ذكر تعالى أنه يعلم سرهم وعلانيهم، وأن آلهتهم لا تعقل ولا تفهم، ولا تبصر ولا تسمع، فلا سبيل لها إلى المعرفة فكيف تسوى بمن أحاط بكل شيء علما.

ثم تدرج جل شأنه في البرهان، فبين أن هذه الآلهة مع كونها لا تخلق شيئاً فلا تسوى بالخالق، هي لله مخلوقة، ولمعرفته محتاجة، فكيف نستنصر بعاجز ضعيف وتترك قويا قهارا؟ كيف نستنجد بالأموات وندع رب الكائنات ثم صرح بالدعوى التي ذكرها أول سورة النحل فقال:-

" إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ".وبين أن الحامل لهؤلاء الكفار على مجانبة هذه الدعوى مع وضوح دليلها، ونصوع برهانها، وبداهة مقدماتها إنما هو استكبارهم وعنادهم وبغيهم واستعلاؤهم وقد قال تعالى: " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"

وحجاج القرآن كله على هذا النحو البديع الذي تسترسل معه النفس، ويسلس به قياد العقل. انظر قوله تعالى حكاية عن واعظ المدينة: (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (١١) "يس".

وتأمل مجادلته (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) "العنكبوت"، وتبصر قوله (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يجمعون) وقوله للذين طعنوا على القرآن ينزله: مفرقا (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تفسيرا) وفي مثل هذا المعنى قوله تعالى: (وَقُرْآَنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) وانظر رده تعالى على الذين اقترحوا على محمد ﷺ أنزال آيات معينة ليؤمنوا به يأخذك العجب ويستولى عليك الدهش من قوة

الجواب وقضائه على كل شبهة وإزالته لكل ريبة. وذلك في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[١] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [٢] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ[٣] أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (الإسراء)

ولولا خشية إطالة الموضوع لسردت لك الكثير من أمثال ذلك ونحن إنما يهمنا تنبيهك بالأمثلة إلى نلك الخطة الحكيمة التي ارتسامها القرآن في الاستدلال فألان بها الطابع الجامدة وحرك بها النفوس الساكنة وفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفا. فإذا أردت أن تحسن الجدال وتأخذ به الخصوم وتدرك به الغاية وتقطع العذر على معارضيك فانهج منهج القرآن فإنه أهدى سبيلا وأقوم فيلا وأحسن تأويلا.

القرآن هو الكتاب الذي إذا لازمه الإنسان واتخذ منه خليلا

---

[١] قطعاً

[٢] جماعة

[٣] ذهب

وسميرا وأقبل عليه يتلوه حق تلاوته يفقهه كلمة كلمة، وجملة جملة، وآية آية، وسورة سورة– أفاض عليه من الهداية ما يجعله كبير العقل صادق الرأي نافذ البصيرة قوى الحس طاهر النفس يأتي كل خير ويذر كل شر (إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الأسراء)

ولقد تأثر به الجن ساعة سمعوه وامتلأت قلوبهم بمحبته وإجلاله حتى أسرعوا لدعوة قومهم إليه: (فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآَنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) (الجن) و: (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ)

وكيف لا يكون للقرآن في النفوس هذا الأثر وله عليها هذا السلطان الذي يفعل فيها مالا تفعله القوى القاهرة وقد وصفه الله بقوله: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر)

ولأن القرآن هو الأستاذ الكبير والمربي العظيم ذو الإرشاد الحميد والأثر المجيد، أمر الله نبيه ﷺ بتلاوته خصوصاً في وقت هدوء الليل وسكون الجو وراحة النفس وصفاء العقل وخلوه من

الشواغل والاسترسال وراء الحس فقال له: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا[1]) فالنفس تشهده والقلب يحضره وقال له:

(اَ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) فأمره بترتيل القرآن لتقوى نفسه فتستطيع القيام بأعباء الرسالة والدعوة إلى الله والصبر على مناوأة الأعداء.

وإني وربك لمحدثك عن مشاهدة ومخبرك عن عيان ما وجدت معضداً على تحمل متاعب الحياة ولا مخففاً لنواءيها ولا مذيباً لشدائدها ولا مسليا عن فتائنها أكبر من هذا القرآن، إنه ليحيل التعب في سبيل الجهاد إلى راحة والألم إلى لذة والشقاء إلى سعادة وإن الخطب لينتابك وقد كبر عليك حلوله وهالك نزوله فاذا ما لجأت إلى القرآن وتدبرت آياته وتفهمت عظاته وقرأت من قصص المرسلين والأئمة المصلحين وما أصابهم من ضروب الإيذاء وسهام

---

[1] في البخاري في كتاب التفسير عند قوله تعالى: (إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح" يقول أبو هريرة افرق إن شئتم: (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) أهـ. فهذا يدل على أن قرآن الفجر غير التهجد في الليل.

الأعداء دق الجليل وهان العظيم وتبددت الإحن وكأن لم تكن وإذا ساورتك الهموم وتملكتك الإحزان فاستعن عليها باي القرآن واملأ قلبك بخشية الله فلا ترى لهما ولا حماً ولا حزنا ولا ألما.

وكان خليقا بالمسلمين وقد يسر الله لهم القرآن وسهل عليهم حفظه حيث أوجد المطابع التي كثرت بها المصاحف كثرة لم يبق معها اقتناء المصاحف على أي أحد عسيرا، خليق بالمسلمين والحالة هذه أن يهبوه من وقتهم ولو قليلا ومن تفكيرهم ولو يسيرا ولا يصنوا عليه بعشر ما ينفقونه في قراءة الفقه والأصول وكتب الكلام والفلسفة، بله القصص والروايات والأساطير والخرافات ولكن هجروا القرآن وصدق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلمك فيما يحكى عنه ربه (إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآَنَ مَهْجُورًا) فهل لهم أن يعودوا إلى حصنهم الحصين وناصحهم الأمين وأنه لبين أيديهم: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟

٣- أثره العظيم

القرآن هو الكتاب الذي لا يحتاج إلى دليل من الخارج لبيان أنه من عند الله وأنه وحيه أنزله على عبده محمد ﷺ بل دليله فيه وحجته معه وآيته منه فقد جاء على يد أمي نشأ في أمة أمية لا تعرف التاريخ القديم، فقص علينا من أخبار الأمم السابقة التي بادت من آلاف السنين بل قص علينا تاريخ الإنسان الأول يوم لم يكن غيره يكتب عنه ما عمل ويصف ما شاهد، قص علينا ذلك بأسلوب غير معهود في عبارات المؤرخين.

فتراه يتعرض للحوادث الهامة بنوع من الإجمال قد خلا من التفصيل الذي لا مدخل له في مورد العبرة، ولا في استنباط العظة، فقلما يتعرض الذكر المكان، أو لساعة الحادث، أو ذكر من مثلوا القصة تفصيلا– إنما يذكر الجرائم التي اقترفتها الأمم السالفة محيطها بما ينفر الناس منها ويبغض اليهم اقترافها ثم يتبعها بالعقاب الذي أنزله بأهلها مبينا سننه في الأمم المجرمة والأعضاء الفاسدة، وأنه مطهر الأرض منها حتى لا يضلوا عباده ولا يلدوا الكفرة الفجرة ويتقصى من تبعة القضاء عليهم بأن ذلك جزاء ما افترقوا، وعقاب ما اجترموا جزاء وفاقا (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى

بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ). (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ). (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا). (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) .

ويبين الأعمال الطيبة التي كسبتها الأمم الخالية، أو الأفراد المصلحون فيها ويذكر مكافأته العادلة لهؤلاء وأنه مكن لهم في الأرض وجعلهم الا عزة ومن عادوهم الأذلة وأنه أفاض عليهم من خيرات الأرض والسماء حتى أصبحوا في عيشة راضية، وحياة طيبة " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ "

" وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ "

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا "

" وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ"

فترى القرآن يسرد قصص السابقين بهذا الأسلوب المفيد المربي للإفراد والجماعات السائق لها إلى فعل الخيرات وتجنب السيئات فمن أين جاء لمحمد النبي الأمي هذا القصص القديم الذي مضى عليه عشرات القرون، ومن أبن استفاد هذا التنسيق الطريف الذي لا يعرف له نحو سابق ولا مثال غاير وليس من صنع مُحَمَّد ولا وضعه ولكنه صنع الحكيم العليم الذي نفذت حكمته في كل موجود وأحاط بكل شيء علما.

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ

أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) وصدق الله ومن أصدق من الله قيلا إذ يقول: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ):

أليس من الآيات البينة على أن القرآن كتاب الله، تلك القواعد الجليلة التي وضعها لسعادة الفرد في حياتيه، ولسعادة الأمم وبناء مجدها وعزها وكرامتها واستقلالها فما ترك خيرا يعود على المرء بصحة في جسمه أو رقى في عقله أو كمال في خلقه أو هداية في نفسه إلا بينه، وحث عليه بضروب من الترغيب مختلفة. وما ترك شرا يفسد بنية الجسم أو يضر بالعقل أو يوهن الخلق أو يذل النفس ويضلها إلا حذر منه ونفر وأوعد عليه ورهب فقد أمر بالتمتع بالطيبات والزينات وأمرنا بالأكل والشرب ونهانا عن الإسراف فيهما، وحرم علينا الأطعمة الفاسدة من المينة والدم ولحم الخنزير، وأخذ الزينات، ومن علينا بما خلقه، وأحل لنا ما طاب من النساء وحثنا على التعقل والتفكر، والسير وراء الحجة وكل ذلك متمم للقوة العقلية، وذكر الأخلاق الطيبة من عدل وإحسان ورأفة وبر بالوالدين، والأقرباء، وصبر على البلاء وعفة

وشجاعة وعزة وكرامة، وعفو وغفران، وحمد وشكران.

وقد مدح نبيه بحسن الخلق فقال:"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ". وكفى بهذا حثا على التحلي بالفضائل، والتزين بمكارم الأخلاق، وأمر بتزكية النفوس وتطهيرها، ورتب على ذلك الفلاح والسعادة فقال: " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا " وما الشريعة كلبا إلا لرفعة النفس وإعلاء شأنها وتقريبها من المثل الأعلى مثل الكمال الإنساني

وكما أمر بكل ذلك وحث عليه ورغب فيه، فإنه نهى عن تقض البناء الجسماني أو التعدي على لبنة من لبناته.

وكتب فيه القصاص (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) وفي قتل الإنسان نفسه ونحره لروحه جاء قوله تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) وامر بالقصاص في الأطراف كما تراه في سورة المائدة ورخص عند المرض والسفر في الفطر والتيمم.

كل ذلك محافظة على الصحة وعلى الهيكل الجسمي وإبقاء لأعضائه سليمة من العيوب والأمراض لكى تؤدى وظيفتها في الحياة كاملة غير منقوصة ونهانا عن تعاطى المسكرات التي تخامر العقول وتعلب بها وتذهب برشدها وصوابها وبين أنها مثيرة للعداوة

والبغضاء وسبيل الفتنة والشحناء وصادة عن إقامة الصلاة وذكر الله وحرم كل مضر بنص قوله تعالى (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ) وما ذلك الأثم الا الضرر فإن في التعليل بذلك دليلا على تحريمه كل مضر وقد صرح بذلك رسول الله ﷺ في قوله "لا ضرر ولا ضرار" فالحشيش والأفيون والكوكايين والهروين كل ذلك قد حرمه القرآن محافظة على العقول التي تدير أمر الإنسان بل تدبر كل شيء في هذا الكون تلك العقول التي ميز الله بها بنى الإنسان.

٤- أدلة بينة

ومن الأدلة البينة على أن القرآن وحي الله ما تضمنه من الحقائق الكونية التي لم يكشفها علماء الطبيعة إلا من زمن قريب، فالقرآن حدث بها منذ ثلاثة عشر قرنا يوم لم تكن بحوث طبيعية ولا مخترعات علمية ولا استخدام للقوى الخلفية يوم كان العالم في عماء وعلوم الطبيعة في ظلماء لم تسلط عليها أشعة البحث ولا نور الفكر ، فأشار القرآن إلى طرف منها ووكل إلى الأيام تفسيره وبيانه والانتفاع بثماره " سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " ولولا أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتربية للإفراد والجماعات لا كتاب علمي تسطر فيه السنن الكونية والخواص الطبيعية ولولا أن حكمة الله قضت بأن يكون انتفاع الإنسان في هذه الحياة من مجهود فكره ونتاج عقله وتعبه وكده وسعيه وجده " فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ " ولولا أن الله جعل كشف العلم لهذه الحقائق آية متجددة على صدق القرآن كما أشارت إليه الآية السابقة.

لولا ذلك كله لوجدت صحائف القرآن قد ملئت بشرح

خواص الأجسام ما كشفه منها العلماء وما لم يكشفوه فإن ربك خبير بما خلق في الأجسام من الطبائع وهو الذي أحاط بكل شيء علما فما بيتنا وبين العلم بهذه الطبائع الا أن يحدثنا ربنا عنها ومن أصدق من الله حديثا ومما حدثنا به أنه وصف بدء التكوين بقوله "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ " وقد كشف العلماء أن مادة السكون هي الأثير كما كشفوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَالْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ " وحققوا أنه لولا الجبال لاضطربت الأرض في دورتها ومادت والله يقول " وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ "

وكشفوا أن منشأ التغير في المركبات الكيماوية تخالف نسبة المقادير وفي القرآن " وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ " وتبينوا ناموس اللقاح العام في أنواع النبات والقرآن يقول: " فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى " ويقول " فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " ويقول: " وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ "

وكشفوا البخار والكهرباء وسخروها في تسيير الفلك والقاطرات والتراكمات والسيارات والطيارات والغواصات والقرآن

يقول بعد ذكر ما نركب من الحيوان من أنعام وخيل وبغال وحمير: " وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " وأمرنا الله بإعداد ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل لنتقي به شر الأعداء وذلك في قوله: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْقُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) فنص على الخيل لأنها عدة للحرب في كل زمان ونكر القوة لأنها تختلف باختلاف العصور وكأن في ذلك إشارة إلى ما يخترع من مدمرات الحروب كالطرادات والغواصات والألغام والغازات الخانقة- إلى غير ذلك مما أشار إليه القرآن عرفنا منه ما عرفنا وستحدث الأيام عما جهلنا ومن آيات أن القرآن حق لا ريب فيه وأنه صادر عن أحكم الحاكمين أنه قص علينا عقائد كثير من أرباب الملل كعقائد اليهود والنصارى والصابئة والمجوس وما كان يحيكها كما يحكى المؤرخون ويصفها كما يعقد المنتحلون بل كان يميز حقها من باطلها وصادقها من كاذبها ويقضى فيها قضاءه الحق المؤيد بالدليل والبرهان فلو كان القرآن من وضع مُحَمَّد الأمي لسلك سبيل المؤرخين أو النافلين ولم يشفعها بنقد أو إبطال لا يتيسر له سبيله ولا يساعد عليه تكوينه خصوصا في المسائل التي قام عليها إجماع أو شبهة من أرباب هذه النحل فالنصارى يقولون بعقيدة الصلب والفداء فنفى القرآن تلك العقيدة وبين منشأها بقوله في حكاية أعمال اليهود " وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ

وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا " ويقولون بالتثليث أو أن عيسى هو الله أو أنه ابن الاله فلم يجارهم في هذه العقيدة بل قضى عليها بالبطلان في كثير من آيات القرآن وأدحض شبهاتهم في هذا الباب بمثل قوله: " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ " وقوله: "مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآَيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" وقوله " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " وبين القرآن أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ونسوا حظا منه وبين قسما مما نسوا وحظا مما أوتوا فأنى لمحمد أن يعرف ذلك ولا علم له بتواريخ الأديان وما طرأ عليها من تحريف أو تغيير بل لا علم بذلك عند مؤرخي عصره أفترى ذلك من تأليف مُحَّد ونقد مُحَّد اللهم أنه الحق من عندك ولقد وصف القرآن عيسى بالحق فرفع بذلك شأنه كبشر مصطفى- عما يقول فيه أنصاره الذين خلطوا في أمره فتارة يرفعونه إلى مقام الألوهية وتارة يصفونه بما يتنزل به

إلى أحط دركات الإنسانية وما قولهم في أمه ببعيد.

وكما اتبع هذا النهج مع النصارى سلكه مع اليهود ، فسرد عقائدهم الرائعة وأتى عليها من قواعدها بقوة الحق وسلطان الدليل "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" ولقد عنى القرآن بتاريخ اليهود عناية عظيمة لأنه تاريخ مملوء بالعبر والعظات وهو أكبر مسل للأنبياء المصلحين عما يلاقونه من أممهم المعاندين ولأنهم كانوا يجاورون الرسول ﷺ بالمدينة وله معهم الحوادث المعروفة أفترى رجلا يكذب على الله كما يزعمون " كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ" يريد من الناس أن يلتفوا حوله أتره يجاريهم في آرائهم وتحلهم ولو يسيرا من الزمان لينصروا مبدأه ويعملوا تحت لواثه أم يصدمهم بتفنيد عقائدهم وتمييز غثها من سمينها الله لولا أنه يصدعهم بوحى الله وكلمه وآياته وحججه ما وقف من عقائدهم هذا الموقف الذي وقفه بمينه مع قومه الذين نشأ بينهم وتربي بين عادهم وأخلاقهم وشب فيهم وقد أتوا أمرا إذا واتخذوا لله ندا فما جاراهم ولا مالأً هم ولكن صدع بالحق بينهم وقال " فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ " وما تصدر هذه المقالة التي تشعر بقوة

في قائلها وبه في مصدرها من مفتر كاذب يختلق على الله كتابا ويدس عليه شرعا ولكنها لحق صدر من العزيز الحكيم وجرى على لسان مُحَمَّد.

" وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" ثم أترى مُحَمَّداً – بأبي هو وأمي– يختلق على ربه ويقره على اختلافه يمشى بين الناس عشرات السنين ثم لا يأخذ على يده ولا ينتصر منه لنفسه اللهم إن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[١] فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ " ولقد احتوى القرآن على الأصول العامة التي قامت عليها الشرائع السابقة من توحيد الله ووصفه بما هو أهله وإثبات البعث وما يليه وما يسبقه ومن قواعد الأخلاق وأمهات الأحكام والاتحاد والائتلاف الخ " شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَوَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ"

فكان ذلك آية جديدة على أنه من عند الله خصوصاً عند

---

[١]الوتين عرق كبير من حروق الدم إذا انقطع مات صاحبه

العالمين بالكتب السابقة والشرائع السالفة وقد أضاف إلى هذه الأصول ما يلائم تطور الإنسان وتقدم الزمان حتى يكون كفيلا بسعادة البشر في مختلف العصور التي جعل فيها قانونهم العام ودستورهم الشامل العادل الذي لا يتغير ولا يتبدل في قواعده العامة وأسسه الدائمة.

القرآن هو الكتاب الذي فك العقول من قيودها وحرر الأفكار من أغلالها وأهاب بها نحو التبصر والتذكر والتعقل والتفكر والاعتبار والتدبر ونعى عليها التقليد ورقه والاستسلام وذله وحرم عليها أن تقول على الله بغير علم وأن تقفو مالا تعرف وأن تحاسب سمعها وبصرها وفؤادها قبل أن تحاسب عليها " إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا " وقد حتم عليها أن تسير وراء الدليل في كل شؤونها وأن تخضع لسلطانه وإن خالف عقيدة الآباء والأجداد وإن كان ضد ما أجمع عليه الناس وتناقلوه، وأذعنوا له وتيقنه.

ولأن القرآن يأبي أخذ الشيء من غير دليل ، نبين لك صدق ما قلنا باي القرآن قال تعالى في سورة البقرة " وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ " فبين أن تقوى الله خير زاد في الحياتين وأمر بها ذوى العقول النيرة لأنهم الذين يعرفون بصادق

نظرهم خطرها وأثرها في سعادة المرء، وقال في السورة نفسها " يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ " فبين أن العقلاء المفكرين هم أهل الاتعاظ والتأثر بالنصائح وأنهم العرفاء بمكانة الحكمة وجلبها للخير الكثير لمن أقسم بسمتها وما الحكمة الا وضع الأشياء في مواضعها ولا يكون ذلك إلا إذا سبقت الأعمال بالتفكير فيها لمعرفة حقائقها ونتائجها وخيرها وشرها وقال تعالى في سورة آل عمران " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ" فمعرفنا أن المفكرين هم الذين يقفون على أسرار هذا الكون وآياته وينفذون من النظر فيه إلى معرفة خصائصه وطبائعه وقال تعالى في سورة المائدة " قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " فأفادنا أن اختلاف الخبيث والطيب في الدرجة وعدم الاغترار بكثرة الخبيث ومجانبته إنما يقف عليه ذوو العقول السليمة أما من في رأيهم افن وفي قلوبهم مرض فانهم يغترون بالزخارف والشهوات فير تادونها وإن كان من ورائها للمعاطب وقال في سورة يوسف بعد أن حكى لنا سيرته وما فعل به إخوته وما كان من رفع الله مكانته " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ "

فبين أن التاريخ وحوادثه إنما ينتفع بعظاته أولو الإلباب الذين يتجنبون المهالك ليسلموا من شرها ويترسمون خطا المصلحين ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من غلو المكانة ونفاذ الكلمة وجاء في سورة الرعد " أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" فبين أنه لا يستوى العلماء الذين عرفوا صدق القرآن بما أقام الله عليه من الآيات البينات والعمى الذين لا يبصرون ما فيه من الحقائق وأن ذلك إنما يفقهه أولو العقول الذين يزفون الأشياء بميزان الحكمة ويعرفون لكل شيء درجته ومنزلته.

وفي سورة إبراهيم " هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" فبين أن المعتبرين بالبلاغات الربانية وبالإنذارات الإلهية وبالأمثال المضروبة إنما هم أولو الألباب أما قاصر والنظر فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم وجاء في سورة ص " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" فعرفنا أن القرآن كله خير وبركة لمن تدبره وهو عظة بالغة لأولى الإلباب وجاء في سورة الزمر بعد ذكر الماء وآثاره في الأرض بإنبات الزروع المختلفة الألوان التي تنتهي إلى حطام " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ" ففهمنا أن أولى

الألباب هم الذين يفهمون التشابه بين النبات والإنسان وإن حياة الثاني كحياة الأولى، وما بعث الإنسان من رفاته البالية، إلا كإنبات النبات في الأرض الصالحة، وجاء في السورة نفسها " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ". " فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ "

فبين أن القائمين بالأعمال النافعة إنما هم العقلاء، وفي سورة المؤمن والطلاق مثل ذلك وقد حثنا الله على التدبر في القرآن والتفقه فيه في سورة النساء والقتال وص ورغبنا في التذكر في أكثر من خمسة عشر موضعا وفي القرآن آيات كثيرة دعتنا إلى التفكر في القران وتعليماته وفي مُحَمَّد ﷺ وحاله وفي قصص الكتاب وعبره وفي العالم الأكبر وسماوته وأرضه وما خلق الله بينهما وما أبدع في عالمهما، وفي العالم الأصغر الذي أودع الله فيه من الطبائع والعقول ما جعل العالم كله مسخرا له وفيه الكثير من الآيات المرغبة في التفهم والتعقل وذم من لا يستعملون عقولهم في التمييز بين الحق والباطل وتعرف الحقائق وأما النهى عن التقليد وتوبيخ من آثروه والأمر باتباع الدليل ففي القرآن منه الكثير مثل قوله تعالى في الكفار " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا

عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " ثم شبههم من أجل ذلك بالبهائم وقال " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " فجعل المقلدين كأنهم لا بصر لهم، ولا سمع، ولا لسان، ولا عقل فهل وراء ذلك في التقليد من ذم!

٥- بلاغة وهداية قرآنية

القرآن نزل بلسان عربي مبين، نفذت بلاغته إلى القلوب فملأنها من خشية الله والرغبة إليه وعمرتها بالإيمان والعقائد الحقة فبعثت الأعضاء تعمل جليلا وتصدر عظيما فتكونت نفوس طهر باطنها، وجمل ظاهرها، وتمثل فيها الإخلاص، وحب الخير للناس ، ولا عجب فإن كلام الله دواء النفوس العليلة، وشفاء الأمراض الوبيلة وقوة الإرادات الضعيفة وحياة القلوب الخامدة، وباعث الأمم الخاملة، يرونها مجدا ورفعة وعظمة وعزبة فهو للأفراد والأمم قوة ما أشدها وعدة ما انفعها وما كان له ذلك السلطان إلا بسحر بيانه وفصاحة كلمه ومتانة أسلوبه واتساق عباراته، حتى أدلى بعضها إلى بعض، وتم لك أولها عن آخرها وعاد قاسيها على دانيها، واشتكيت فأوادمها بخوافيها، فهو سلسلة محكمة كل حلقة لها بأختها صلة وأي صله.

جلست يوما أقرأ قوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا– إلى قوله تعالى– ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) وأخذت أتدبر هذه الآيات كلمة كلمة وآية آية، وأعود بأولها على آخرها وبآخرها على أولها فأدركت وربك من بلاغة

القرآن وبداعة أسلوبه وفريد نظمه، وحكيم معانيه، مالا يعبر منه قلم، ولا تحيط به عبارة وكل ما تستطيع أن تشير إلى ذلك إشارة، وإن أبيت الا ما ذقنا، وحقيقة ما أدركنا، فيهرنا وملاً قوسنا فعليك بالتففة والتدبر بنفس خالية من الشواغل، وعقل جوال في ميدان من الحرية فسيح غير متقيد برسوم أو تقاليد، فانك أن شاء الله محس ما أحسنا، إن لم يكن حظك أوفى.

ففي أول الآيات أمرنا ربنا بسيادته وحده، وأمرنا بالإحسان إلى الوالدين، وتخير جل شأنه من بين أسمائه في هذا الموطن أسم الرب، وهو المربي كبرهان على عيادته وحده، فإنه إذ كانت منه التربية بأنواعها كلها للإنسان من جسمية وعقلية وروحية كان الشكر له وحده، وما عبادتنا إلا شكر له على ما حيانا به من النعم، أما غيره ممن أتخذ من دون الله إلها من صم أوثن أو نبي أو ولى، فلا يدله على الإنسان ولا تربية صادرة عن محض ذاته واستقلال نفسه فلم يكن له حظ في العبادة فهذه الجملة (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) تضمنت الدعوى ونقيضها (عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره) بما فيها من الحصر، ودليل الدعويين بذكر كلمة الرب التي أفادتنا إلى ذلك الحكمة في إرداف الأمر بالعبادة الإمر بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما وهي أن الله

مرب أكبر وكل من الوالدين مرب أصغر لان تر بيبتهما لولدهما بما من الله به عليهما من جسم نماه وعقل رباه وروح هداه ومال أعطاه، فتربيتهما ليست من ذاتهما ولكن بما أفاض الله عليهما، ولهذا لم تستوجب عبادة هي الغاية في التذلل والخضوع ولكن استوجبت برا وإحسانا، فيعد أن أمرنا الله بعبادة المربي الأكبر أرشدنا إلى واجبنا نحو المربي الأصغر، وقد فهمنا من ذلك أنه يجب علينا أن تكون تربيتنا لأولادنا على النحو الذي؛ به ربانا ربنا فلا نعنى بتغذية الأجسام وتنميتها وندع تكوين العقول وتهذيب الأرواح. وكما كانت كلمة الرب كبرهان على دعوى توحيد الله في العبادة، كانت كذلك كلمة الوالدين دون الأبوين كبرهان على وجوب الإحسان إليهما، وقد صرح بذلك البرهان في قوله تعالى: (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا). وكذلك في قوله (رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) ثم أخذ جل شأنه يشرح هذا الإحسان ودواعيه بقوله: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) فأمر جل شأنه بتجنب الكلام البذيء معهما لا فرق في ذلك بين دفه وجله، وهينه وفاحشه، وقد أشار إلى الأول بالتأفيف، وإلى الثاني بالنهر فإن فيه توسعا في الإهانة، وأمر

بالقول الكريم الجميل الذي يدل على طيب نفس المتكلم به وارتياح من وجه إليه كما أمر الولد بأن يخفض لوالديه جناح الذلة والمسكنة لا عن نفاق أضمره في نفسه ولا طمعا في مال جمعا أو في معونة يرجوها منهما، ولكن عن رحمة بهما ملأت قلبه نفاضت على أجنحته فإذا بها قد ضمت الوالدين وكلأ تهما ومنعت عنهما العوادين وبغت كل خير يسعدان به وكما فاضت على الألسنة فترطبت بالدعاء لهما أن يسعدا في الحياة القابلة كما سعدا ببره وإحسانه في الحياة الحاضرة فالله قد أمر لهما بمجانبة الكلم الرذيل. وإيثار الحسن الجميل وحسن المعاملة والإخلاص لهما والقيام عليهما بالحياطة والرعاية وطلب الخير لهما في الحياتين فهل ترى الله يعنى بكل ذلك ولا يأمرنا بتقديم المال لهما، وسد حاجتهما من طعام وشراب ولباس وركاب.......... كلا فإن الحريص لهما على الحياة ناعمة، وعيشة راضية، وما سبيله الكمال حريص على الضروري الذي تقوم به الحياة، ففي طلب ما تقدم منا للوالدين طلب لما هو أولى منه فهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

ولما كان الإنسان فخورا بأعماله مدلا بأفضاله، وذلك إحساس بشيء من العلو والترفع وهو لا يتفق وخفض الجناح ذكره ربه بأن ما أوجبه عليه لوالديه ليس منه من الولد، وفضلا

ولكنه قضاء ما وجب وشكر ما قدما وذلك بقوله: (كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) ولما كانت حال الكبر تستدعى رحمة وعطفاً وشفقة وبرا، لأنها حال فقد القوى، كما أنها مظنة الامتهان والازدراء شأن الناس مع الضعفاء والفقراء لما كانت كذلك جعل الله الأمر بما ذكر عند بلوغ الكبر فهي حال أولى بالعناية وإن كان غيرها جديرا أيضا بالرعاية فللو الدين حقوق يجب القيام بها في كل أحوالها في الشباب والكهولة والكبر والشيخوخة وكلما تقدمت منهما وعلا عمر هما زادت الحقوق تقديسا فجد في أدائها ومهالك في القيام بها.

وقد نبهك الله بقوله بعد (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا). إلى أنه رقيب عليك عليم بما تضمر لأبويك من خير أو شرو إجلال أو احتقار وإخلاص أو نفاق وإنه مجزيك بما أضمرت إلا أن تتوب من شر أخفيته وكنت من الصالحين الأوانيين الرجاء إلى الله بالندم على ما اجترموا للصلحين لما أفسدوا فإن أولئك ممن يعفو الله عنهم فالآية تذييل للكلام السابق باعث على تحقيقه.

أفلست ترى- وقد سمعت تلك المعاني الفخمة في تلك العبارات الجزلة- أن القرآن لا يجارى في عبارته ولا يسامى في

بلاغته أن كانت البلاغة العلم الكثير في القول اليسير، كما يقول بعض الحكماء: أفلا ترى ذلك فيما أسلفنا ولا سيما في الآية الأولى وإن كانت البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن كما يقول أبو هلال العسكري – أفلا ترى أن احترام الوالدين وإجلالهما وإعظامهما قد وصل إلى قرارة نفسك وسكن حبة قلبك، وإنك بعد أن سمعت ما سمعت تراك كمجبور على القيام بواجبهما، ومراعاة حقوقهما أظنك كذلك إن كنت ممن ألقى السمع وهو شهيد.

ثم انظر بارعاك الله حسن الترتيب في قوله (وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيل) فإنه لما ذكر ابر بالوالدين وهما أقرب الناس إلى المرء ناسب أن يعقبهما بباقي الأقارب فأمر بإيتاء كل قريب حقه من معونته بماله أو مساعدته بجاهه وصلة رحمه وتفقد أمره، والسعي في كل خير استطاع جلبه إليه، ولما كان المسكين الأجنبي يمت إلى الإنسان بالقرابة البعدي التي نشأت عن الأصل الأقصى، ذكره بعد الأقربين وأمر بإيفائه حقه ولما كانت حاجة المسكين دائمة وحاجة ابن السبيل حاجة وقتية أتبع الأول بالثاني فترى كل كلمة تمت إلى جارها بصلة وكل آية لاحقة ترتبط

بالسابقة. فالكلمات كالآيات نظمن في سمط واحد وكل كلمة في مقامها واسطة عقد تسترعى الأنظار وتبهر الإبصار، وانظر إلى موقع قوله تعالى (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) من كلام السابق فإنه وقف به المنفقين عند حد محدود في الإنفاق لا يضر بنفوسهم وأبطال به تلك القضية الذائعة (لا سرف في الخير) وتخلص به من حيث لا يشعر إلى موضوع الإسراف الذي أفاض القول فيه كما انتقل بك قبل من توحيد الله إلى بر الوالدين إلى رحمة الأقربين والمحتاجين بتلك الصلات التي شرحناها لك، ثم أخذ يعلل النهى ويعلل العلة وذلك في قوله (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) فالجملة الأخيرة علة لتجنب الإسراف وعادة النفس أن تسترسل إذا أخذ الحديث بعضه بأهداب بعض، ولا سيما إذا كان ارتباط علة بمعلول، ومعلول بعلة كما في آيتنا هذه ثم أتى بجملة تظنها معترضة وما هي بالمعترضة، وتلك قوله تعالى " وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قولا ميسورا" تخالها معترضة لأنه سيحدثك عن الإسراف بعد هذه الآية وليست بمعترضة لأنها تبين لك الواجب إذا لم تجد المال وتعرفك أن الكلمة الطيبة كالصدقة الخالصة كلتاهما داخلة في باب الإحسان مطالب بها الإنسان، ثم نهاك بقوله تعالى (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) عن البخل الذي هو

ضد الإسراف، والضد أقرب الأشياء خطوراً بالبال ولم يذكره تصريحا بل مثله لك في صورة بشعة مرذوله تنفر نفسك منها وتشمئز، ونهى عن الإسراف مرة أخرى في ثوب طريف من التمثيل ولم يكن ذلك التكرير ابتغاء حلية فحسب بل استخلص من بين الغل والبسط صفة ثالثة هي الاقتصاد الذي ينبغي أن يكون رائد المنفقين لأنه طريق التمتع بالثروة في الحياة الدنيا (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)..

بـــين تبـــذير وبخـــل رتبـــة وكـــلا هـــذين إن دام قتـــل

وانظر إلى قوله (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) حيث تجد فيها برهانا على ضرر البخل واستدعائه المذمة وإطلاقه الألسنة بالقدح وعلى سوء عاقبة الإسراف حيث يفقد صاحبه الثروة ويدعه يتكفف الناس ، فيمد لهم يد الذلة وكانت من قبل يد العزة لولا جناية الإسراف وانظر حسن الترتيب اذا قدم علة المتقدم وثنى بسلة التالي فأحل كل كلمة في محلها ثم بين جل شأنه أن الأنفاق في اقتصاد لا يجنى على المال ولا ينتهى إلى الإملاق وأن بسط الرزق وقبضه مرتبطان بمشيئة الله ذي الحكمة البالغة والخبرة الكاملة والبصر النافذ والعلم الشامل وقد قضى أن الأنفاق مدعاة الإغداف وأن كرم المبد مجلبة لكرم للرب (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فانفق أهذا اتفاقا ولا تخش من ذي العرش إقلالا ((٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) ثم قال جل شأنه (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) فتهي بذلك عن قتل الأولاد مخافة الإملاق ، وكأنه دخل بك في واد جديد لا صلة له بالأول مع أنك لو أمعنت في العلة خشية إملاق– لأخذت منها الصلة والعلاقة فاننا فهمنا من الآية السابقة أن فكرة الفقر لا ينبغي أن تحول دون الأنفاق المحمود ولن من تعللوا بها خاطئون كخطأ الذين قتلوا أولادهم مخافة الفقر وماذروا أن الله تكفل برزق عباده وفتح لهم من أبواب الثروة كلما زاد عددهم وخزائن الله لا تنفد ثم من أبواب الثروة كلما زاد عددهم وخزائن الله لا تنفد ثم بين تعالى أن قتل الأولاد إثم كبير وأن هو إلا كقتل الإنسان نفسه وما ولدك إلا بضعة منك ولم يبطل تعللهم بخشية الفقر اكتفاء بإبطاله السابق فآية (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ) خدمت ما قبلها وما بعدها وكذلك كلام الله يفيض عليك المعاني من كل نواحيه ثم قال (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) فحرم الزنا وعلله بفحش أضراره وسوء سبيله. وإذا عرفت أن الزني وأد خفى وأنه قتل للحياة الشريفة حياة العزة والكرامة علمت متانة الصلة بين

هذه الآية وسابقتها. وبعد أن ذكر جلت حكمته الوأدين الواضح والخفي وكلاهما قتل الولد خاصة، نه عن القتل العام بقوله (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وحذر السفكة العاقبة وأنها انتقام عادل بيد القوى القهار (قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا) وقوله (فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ) نهى عن القتل بشبهة الحق. فترى القرآن في ذلك الأسلوب الآخذ بعضه بحجز بعض قد حرم القتل بأنواعه الخفي منه والجلي والحسي والأدبي والخاص والعام، ولم يبح من ذلك إلا قتلا بحق لا شية فيه ولا شبهة ثم أعقب ذلك بقوله (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) ففهمنا أن أكل مال اليتيم ظلما قتل لنفس الآكل ولكنه قتل أشد وأنكى وأبقى أثراً " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا " أضف إلى هذه السلة أن أكل مال اليتيم إضرار بالصغير، فكما منع التعدي على نفسه حرم أكل ماله، فكل ذلك داخل في باب العناية بالنشء الصغير فهما جوهر ثان من عقد واحد، ثم أمر بالوفاء بالعهود التي أخذناها على أنفسنا باحترام الدماء والأموال والأعراض فالمرتكب لجريمة من الجرائم السابقة ناكث المعهود ثم انتقل من مال اليتيم إلى الأموال العامة فقال (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) فامر بإيفاء المكيال والميزان

وأنه خير من البخس وأحسن فائدة وأجلب ربحا وإذا أمر باحترام النفوس والأموال ناسب أن يذكر الجناية على العقول وينفر منها وهل من جناية على العقل أكبر من سلبه البحث الحق والزامه بالسير وراء الغير أخطأ أم أصاب وذلك قوله (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ثم ختم الكلام بذلك الختام الجميل الذي أفاد المسئولية العامة للإنسان وأنه مؤاخذ بكل ما صدر عن جوارحه (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) ثم ختم هذه النصائح بالنهي عن المشي في الأرض مرحا وعلله بما يترك الإنسان يفكر في قوته ومنشئه ومرجعه ليضع نفسه في الموضع المناسب لها ولا يتكبر على الناس، وكأن هذا أمر بخفض الجناح للناس عامة كما أمر بخفضه للوالدين أول الآيات فآخر الكلام عائد على أوله وخاتمته مرتبطة بفاتحته والكبرياء لله وحده الجدير بالعبادة. والتواضع والخشوع له من خلقه، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه، ثم قال جل شأنه (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سيئة عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فبين أن هذه القبائح على ما فيها من الأضرار البينة مكروهة للرب مغضبة له، فكيف يسعى في غضبه من يعبده حق عبادته ويوحده جد التوحيد، فعجز الكلام يمت إلى صدره بسبب ويمت إليه بنسب، ثم قال (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) فكانت مسك الختام وآية التمام، وإن فيها لإشارة إلى وضع كل

كلمة في موضعها وكل آية في مقامها وأن ذلك التشريع الذي شرع مبنى على الحكمة والمصلحة والخير للناس كافة.

وكأني بك أيها القارئ قد وقفت على بلاغة القرآن لا من كلمات نسردها وتحبرها، بل من مثال بيناه لك جهدنا وشرحناه طاقتنا وهو دون ما في نفوسنا، وإن هذه الكامة لمقدمة بين يدى التحدي بالقرآن الذي نبينه. والله الهادي إلى سواء السبيل.

٦- إعجاز قرآني

بينا لك فيما سبق نظام القرآن البديع، وحسن سيافه والتئام كلمه وآية بما شرحناه لك من آيات الأسراء وكل القرآن على النحو الذي وصفناه، وما كانت بلاغة القرآن في حسن الرصف فقط بل انك لتجد كلما نه متخيرة من لغة الغرب تمتاز بالسلاسة والسهولة والخفة على الألسنة لعذوبتها وحلاوتها وصفاتها ورقتها، وليست تعافها نفسك ولا يملها لسانك إن رددتها وأكثرت من تلاوتها، بل تراك في كل مرة– أن كنت متدبرا– تحس لها بطعم أشهى من سابقه وأدنى من لاحقه، فهو لا يخلق من كثرة ترداد ولا يمج من طول العهد به بل كلما ازددت له عشرة، ازددت له محبة فهو لا يفتأ يمدك من جناه كلما اشتهيته، ومددت يدك تقطف من ثمره.

ولقد شهد له بتلك الفصاحة أعداؤه. الذين منعهم لاستكبار عن الإيمان به، فهذا الوليد بن المغيرة يقول بيه إذا سمعه "إن أعلاه لمورق وأن أسفله لمعدق[(١)] وأن له لطلاوة وأن عليه لحلاوة".

---

(١)أعذفت النخلة كغرتاعذافها والمذق ما فيه الثمر والثمار يه الرفيعة.

وأن الواحد منا ليقرأ القصيدة للمرة الثانية أو الثالثة وهي من نحرر القصائد فبملها ولا يحس لها بأثر أكثر مما أحس به أول مرة، أن كان فهمها وعقلها، ولا مجد هذا في القرآن بل يرتفع في نظرك كل مرة حتى تجده اعتلى مكانة لن يطمع في الوصول إلى مثلها كلام البشر.

وكما لا تعثر فيه على لفظ غث أو كلمة مرذوله مستهجنة ثقيلة على اللسان، أو السمع– لا تجد معنى من معانيه، لا يلتئم من الحال التي قيل فيها وسيق لأجلها بل كل ما فيه من المعاني موف بالغرض منه، وواقع موقع الحاجة إليه، لا يزيد عليها ولا يقصر عنها فهو منظوم بقدر صادر عن حكمة حكيمة، وتدبير مدبر، ولهذا كان من سنة القرآن أن ما فهم من السياق لا يصوغه في عبارة خاصة بل عبارته للسياق كله لأن الألفاظ إن هي إلا وسائل للمعاني. فإذا أمكن وصولها إلى ذهن المخاطب في غير قالب مخصوص كان من التكرير في غير موضعه، صوغها في عبارة مستقلة.

انظر إلى قوله تعالى " وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآَنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ " تجد جملا محذوفة بين قوله تعالى: " لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا

" وقوله "وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ " قد دل عليها السياق ذلك أن المعنى: لينذر من كان حي للقلب فيتأثر بالإنذار فيؤمن فيستحق النعيم، ومن كان ميت القلب، مطبوعاً عليه بطابع السوء، لا تؤثر فيه الموعظة فيكفر، فيحق فيه العذاب- فكل هذه الجمل نيه إليها السياق، فكان من الحكمة، ولا يجاز أن يطوى ذكرها اكتفاء بما دل عليها، وكذلك قوله تعالى في رؤيا الملك وإرشاد الساقي له إلى من يعبرها ويؤولها "فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ" فتجد جملا محذوفة بين كلمة "فأَرْسِلُونِ" وكلمة " يُوسُفُ ". وهي فأرسلوه فأتى إلى يوسف فقال له: يوسف... الخ ومثل هذا في القرآن كثير وهو طريق من طرق البلاغة في القرآن فانه يفيدك المعنى الكثير من اللفظ القليل.

ومن بلاغة القرآن حسن فواتحه وخواتيمه ألا تراه كيف بدأ سورة القتال بقوله: " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ". وهي سورة وازن فيها بين المؤمنين والكافرين، وبين عقائد كل وأعماله، وأخلاقه، وما أعده في الآخرة لكل فريق، وقصد من هذا أن يلهب من آمنوا لقتال من كفروا بالله،

وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله. فبدأ السورة هذا البدء البديع. الذي نبه به المسلمين إلى فساد طوية هؤلاء وخبث أعمالهم، ووقوفهم في سبيل الدعوة، ليكون أول ما يقرع أسماعهم ملهبا لهم إلى قتالهم، وباعثاً روح الشجاعة في نفوسهم، خصوصاً بعد أن أخبرهم الله بأنه مضل أعمالهم ومحبطها، وقاض عليها ومبطلها. ولذلك قال بعد، ") فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا".

وانظر كيف عقب هذا الأمر بدفع شبهة، كثيرا ما جالت بالنفوس، وهى لم ينصر الله أحبابه وأنصاره، بدون قتال منهم وإجهاد، وإضاعة نفوس وأموال فقال: " ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِانْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ"

وتأمل حسن الاختتام في قوله تعالى في آخر سورة الأحقاف: (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) فتراه بعد أن صلى الرسول ﷺ بضروب مختلفة، وبين له سننه في الأمم المكذبة، وإيمان نفر من الجن به ودعوتهم قومهم إلى دينه طلب منه الصبر لا صبر المقهور.

ولكن صبر الواثق بالنصر، وأن يتأسى بأولي العزم من الرسل الذين لم يفت في عضدهم شدة ما لا قوا من أقوامهم، ونهاه عن أن يستعجل العذاب لهم، ويستطيل مدة مناوأتهم له فإن ما قضوه في الحياة الدنيا قليل كأنه ساعة من نهار حينما يرون ما يوعدون.

ثم نبهه إلى وظيفته وهى البلاغ عن الله فلا عليك أن كفر الناس أو آمنوا. إنما عليك وظيفة فتلبي لها وشمر عن ساعد الجد فيها، والفاسقون لابد هالكون فهل يهالك إلا القوم الفاسقون، ولعلك إذا تأملت هذا الختام تجد له من الروعة والتأثير ما لا تم عنه العبارة خصوصا كلمة "بلاغ" فانتزعها من بين جارتيها وكررها مرات وارفع بها صوتك لا من حنجرتك ولسانك وشفتك ولكن من أعماق نفسك فإنك تجد قوى قاهرة تهز الأعصاب وتحرك أوتار الأعضاء إلى التفاني في القيام بالواجب وبذل الجهد الجهيد في سبيله، وتبارك الذي أحاط بكل شيء علما.

كما تحس بهذه الروعة في الفواتح والخواتيم، كذلك تحس بها في المقاصد فتجدها مصوغة في قالب محكم بعبارة بينة لا إبهام فيها ولا غبار عليها، تجدها في مكان خلق لها، إذا حولت منه إلى غيره نبابها وأقضها فلا قرار لها، ولا اطمئنان إلا حيث وضعها ربها الخلاق العليم.

انظر معي مرة ومرتين وثالثة ورابعة إلى سورة هود بعد أن قص الله علينا من أخبار نوح وعاد وثمود وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وفرعون وما فعل الله بهم كيف أبان عن الغرض من هذا القصص، وتقصى عن تبعة إهلاكهم بقوله: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ" فانظر كيف لخص هذا القصص الطويل وأحضره كله في خيالك بهذه العبارة الموجزة " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ" وأضاف إليه تفصيلا جديدا لما نستفيده من سابقه وذلك في قوله "مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ" فأفادك في آية قصيرة إجمال المطول وتفصيل المفصل، وإن ذلك وربك للإيجاز المعجز.

ثم نزه نفسه أتم التنزيه من تبعة الإهلاك وألقاها على عائق هؤلاء بتلك الكامة الفخمة ") وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" وبين لهم أن الأنداد الذين قضوا حياتهم في خدمتهم وعبادتهم

واللجوء اليهم والاستشفاع بهم لم ينفعوهم في هذا الوقت العصيب بل زادوهم خسرانا وتتبيبا.

وفي هذا توبيخ وتفريع لأولئك المشركين الذين صموا عن دعوة مُحَّد وعكفوا على أصنامهم يتقربون بها إلى الله زلفى ولم ينالوا منها إلا ما نال هؤلاء لما جاءهم عذاب ربك.

ثم بين سنته في أخذ الظالمين وأنها أخذ شديد موجع وذلك بقوله (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) ثم أفصح عن الغرض من هذه السير التي قصها علينا بأسلوب بليغ تخللته الحكم والعبر بقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ) فبين أن الغرض الاتعاظ والاعتبار بالماضين لنقلع عن سيئاتهم، ونسلك غير سبيلهم، وأفادنا أن التأثر بهذه المواعظ إنما هو لمن آمن بالبعث وخشى عذاب الآخرة، وأنه لعذاب حقيق بالخشية وقد بين هو له وعظمه بقوله (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) فتصور عذاباً أليما يحضره الأولون والآخرون، والخالق والخلوقون أنه لخزى وأي خزى وفضيحة ما وراءها فضيحة، وألم ليس فوقه ألم وقانا الله شره وكفانا ذله.

وإذا فتشت القرآن وجدته كله على هذا النمط البديع، الذي يسحر العقول ويأخذ الإلباب، ويقود النفوس إلى سعادتها في الأولى والآخرة، ويأخذ بحجزاتها عن الشر ومواطنه والعذاب وموقعه.

ولعلك بعد أن سمعت ما سمعت وهو قل من كثر، بل قطرة من بحر، آمنت ببلاغة القرآن وأنه في مرتبة عالية لا يتامى إليها كلام البشر وأن كنت لا تزال في ريب من بلاغته فاقبل إليه واتله وتدبره في جو هادئ وبنفس مطمئنة وبذهن حاضر، فانك إن فعلت وجدت يقينا يثلج صدرك وتأثيراً يفتح جفنك عن دموع هاتنة، وعيون فائضة (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوامِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) وإذ ذاك تؤمن بالبلاغة إن كنت لما تؤمن– وما البلاغة إلا وصول الكلم إلى أعماق النفس فتحركها إلى ما يريد المتكلم– وتعرف السر في أن العرب طرا وقفوا من دون بلاغة القرآن مبهوتين يقرعهم القرآن بحججه ويرسل إليهم من قوارص كلمه ويسفه أحلامهم ويضع من آلهتهم، يخطئهم في آرائهم، ويجهلهم في طرائقهم، ويرميهم بالعجز عن محاكاته والنسج على منواله وانهم إن قدروا على مثله حق لهم أن يتهموه بالافتراء على الله والبهتان

عليه، وتنازل عن دعواه وخضع لحكمهم، ورجع إلى أقوالهم، وسايرهم في عقائدهم، وشايعهم في أعمالهم، فوفقوا صاغرين، وجبنوا في ميدان البلاغة وهم فرسانها السابقون والمجلون، وهرعوا إلى السيوف ينتضونها ليقضوا على "مُحَمَّد" وحزبه، وعرضوا دماءهم للإراقة وأموالهم للغنيمة، وقد كان في الكلم غناء عن الكلوم لوانها كانت في مقدرتهم وطاوعت عليها ألسنتهم، ولكن جبنوا عن القول وشجعوا في الحرب وأداروا رحى الحرب سنين حتى أكلت صناديدهم وقضت على عزهم فدارت عليهم الدائرة، وتمت للقرآن الكلمة (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فهل كنت تري العرب قادرين على أن يجولوا في مثل أسلوب القرآن ثم ينكصون على أعقابهم ويسلكون سبيلا وعراً وأمامهم للقول طريق معبد هيهات هيهات.

لقد وقف القرآن معهم في تحديه ثلاثة مواقف، فطلب منهم أول الأمران يأتوا بمثله فما نبسوا بكلمة، وحكم عليهم بالعجز ولو أضافوا إليهم أمم الأرض قاطبة، ولو أضافوا إلى عالم الأنس عالم الجن، فلو تظاهروا جميعا على محاكاة القرآن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

ثم تنزل معهم القرآن وخفف عليهم الوزر، وطلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله تدانى سوره في الفصاحة والبلاغة، وعلو الأسلوب وانسجامه ومعانيه الحكيمة. فما لفظوا بعبارة بل رأوا في نفوسهم تقاصرا عن إدراكه، وعجزا عن مجاراته، وذلك قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

ثم تدلى بهم إلى مرتبة دنيا وحال قريي هي أقل ما يطلب من مدع للبلاغة زاعم قوته على المعارضة فندبهم إلى سورة واحدة يحاكون بها سوره وطلب إليهم أن يستعينوا بكل مخلوق من إنس وجن وملك وعابد ومعبود من دون الله، فما اسطاعوا قولا وما آمنوا ترفعاً وكبرا (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

وقد حكم عليهم العليم بقوى خلقه وقدرهم أنهم لن يجاروا

القرآن ولن يباروه، وطلب إليهم إذ لم يفعلوا أن يتقوه، فهل بعد تلك المتنازلات الثلاث منازلة، اللهم أنه قولك الحق صدر عن علمك المحيط، وقدرتك الباهرة التي خضع لها كل شيء في الكون وعزتك العالية التي تغلب ولا تغلب، وتقهر ولا تقهر.

وإذا قد علمت طرفا من بلاغة القرآن وقد نزل بلسان عربي مبين لا ترى من الحكمة أن يترجم إلى أي لغة أخرى وإن كان شريعة للناس عامة عربهم وعجمهم شرقيهم وغربيهم ولا أحول بذلك بين البشر وتعليماته وحكمه وأحكامه، بل أرى المصلحة في أن يعبر عن القرآن بعبارة عربية تفسره وتبينه لا تزيد على معناه ولا تقصر عنه، يقوم جماعة ممن درسوا القرآن دراسة وافية، وعرفوه حق المعرفة، ولم يكن التعصب على نفوسهم سبيل، ولا للمذاهب في نفوسهم أثر يعميهم حبه عن صريح القرآن أو ظاهره فيفسرونه حسب ما ينفق ومذاهبهم، ويؤولونه حتى لا يتعارض وعقائدهم ثم يطلقون على مؤلفهم هذا "بيان القرآن أو "معاني القرآن" ثم يترجم هذا إلى اللغات الأخرى، ويقوم بالترجمة جماعة من خيار المسلمين الذين أشربت قلوبهم حب الدين، وكانت لهم قدم راسخة في اللغة العربية واللغة المترجم إليها.

وإذ ذاك تكون قد حفظنا نص القرآن الأصلي من التحريف

والتبديل، لأنه لا يكون للقرآن أصول متعددة بتعدد اللغات بل أصل واحد وتكون بذلك قد مهدنا للأمم الأجنبية سبيل القرآن وجعلناه في متناول كل فرد عارف لغته، ولعلنا نكون بذلك قد قمنا ببعض الواجب من التبليغ الذي لا يزال دينا في عنقنا لهذه الأمم الشرقية والغربية التي لم تعرف ديننا ولا لغتنا للآن اللهم إلا اليسير الذي قد يكون بمعدل عن سنن الشريعة وحجة على الإسلام لا له. فاللهم اهدنا صراطك المستقيم ووقفنا لنشر هذا الدين الذي أخذت علينا الميثاق لنبينه للناس ولا نكتمنه انك نعم المولى ونعم النصير.

٧- أثره في الفس الانسانية

لو كان لمحمد ﷺ يد في القرآن ولم يكن من عند العليم الحكيم ما وجدت فيه تلك الآيات التي تعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض أعمال أتاها، أو آراء أصدرها، فإن النفس مجبولة على أن تظهر نفسها للناس في خير مظهر، لا سيما إذا تصدت للإرشاد العام، والزعامة المطلقة، والقيادة للخليقة كافة، فهي تحرص الحرص كله على أن تكون ساحتها مبرأة مما يشينها وأن تكون أعمالها بمنجاة من اللائمة، ولئن صدر عنها مالا ينبغي فإنها تسعي في إخفائه، ولا تفشيه للناس فيجد العدو منه بابا للطعن، ويجد ضعيف الإيمان بالمبدأ سبيلا إلى إلقاء الحمل الذي تحمله، والعهد الذي التزمه.

أفترض بعد ذلك أن مُحَّداً ﷺ تصدر منه هنات وكانت خفية على قومه وأصحابه فيعلنها للناس طروا يضعها في كتابه الذي جعله قانونا لهم ومرجعاً. عن كلامه يصدرون وبأوامره يصدعون، وبأخلاقه يتخلفون، أترى مُحّدا يقول لنفسه (وَلَوْ تَقَوَّلَ[١] عَلَيْنَا

---

[١] اختلق وقال على الله ما لم يقله

بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[(١)] فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أترى مُحَمَّداً يعنف نعسه، ويذم أعمالا صدرت عنه وينهاها عنها بقوله (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا)

أترى مُحَمَّداً يأذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الغزر ثم يدون بيده في كتابه خطأه في هذا الإذن، وذلك في قوله (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

أترى– بصرك الله طريق الرشاد– أن مُحَمَّداً يمنع نفسه بعض ما أحل له بغير سبب وجيه ثم يلوم نفسه بعد على المنع بقوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

أترى مُحَمَّداً يخشى ملامة الناس في تنفيذ أمر أمره به ربه لأنه يقضى على عادة ذائعة بين قومه مستحكمة في نفوسهم، ولا

[(١)] عرق كبير يحمل الدم

يسارع حياء إلى تنفيذ الأوامر الإلهية ثم بعد ذلك يخبر الناس بما كان منه وهو أمر نفسى لم يطلعوا عليه، فهل ترى محمَّداً يتهم نفسه على مشهد من الناس بما لا يعرفونه عنه، وذلك في قوله في قصة زيد وزينب (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه: أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)

أترى محمَّداً يتخذ أسارى من صناديد قومه في غزوة بدر بعد أن استشار أصحابه ويقيل الفداء منهم لتحرير رقابهم ثم ينكر على نفسه ما عمل بعد أن أحكم الرأي بالمشورة وذلك قوله (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أترى محمَّدا- بأبي هو وأمي- يحدث عن نفسه بأن قومه كادوا يفتنونه عن الذي أوحى إليه وأنه كاد يركن اليهم لولا أن ثبته الله، ولو كاد لأصابه من العذاب مالا قيل له به، أتراه لو كان القرآن من عنده يحدث الناس بذلك في قوله " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا

لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا "

أتظن مُحَمَّداً وقد نصب نفسه إماما للبشر كافة في مكارم الأخلاق، وجلائل الأعمال، ينسب لنفسه في قرآن اختلقه كما يزعم الظالمون- ذنوبا تستوجب الاستغفار، والجد في الحسنات لتغفر له ألم تقرأ قوله تعالى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) وقوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

ما كان مُحَمَّد ليضع نفسه موضع النقد والعتاب واللوم، وينسب لنفسه الخطأ والذنب لو كان القرآن من صنع يده ولكنه الحكيم العليم، ورب المربين، تولى تربية عبده بما أنزله عليه، وبين له أعماله ليقفه على موضع الهفوه ليتجنبها وليحذر أتباعه من أمثالها، وليكون ذلك آية للناس على أن مُحَمَّد ﷺ لا يد له في القرآن، إن هو إلا وحى الله يصدع بالحق، ويبين الصواب، ولو كان على مُحَمَّد، وكان البيان له.

ربما تقول: إن مُحَمَّدا أنصف من نفسه فلما فكر فيما رأى أو عمل وتبين له الصواب نطق به وخطه في كتابه ليظهر نفسه في

مظهر النصفة، والحكم على نفسه، وهذا أدعى لا جلاله واحترامه، ولكن أترى شخصا يبلغ سلطان الحق على نفسه إلى هذه الدرجة يفترى على الله كذبا، وهو من لا تخفى عليه خافية، إن كذبا على الله ليس كالكذب على أحد، فلا يستبيح الأول إلا من تدنس بالثاني، وبلغ فيه الغاية.

ثم أترى النفس الصافية الطيبة التي ترجع على نفسها باللائمة وعلى أعمالها بالحساب والنقد أترى هذه تختلق على الله وتكذب على أمة وتظلها الطريق، إن هذا ليعيد فمحمد صلى الله عليه وسلم ما نقد نفسه، ولا عاتب ولا عنف، ولكنه كلم ربه أراه به طريق السداد، وسبيل الرشاد.

فتلك آية بينة إلى الآيات السابقة تنطق بأن القرآن كتاب الله لا تصنيف مُحَمَّد الأمي، الناشئ في أمة أمية لا نعرف من علوم الاجتماع شيئا. وهنا في القرآن آيات كثيرة وحجج دامغة وأدلة مقنعة على أنه وحى الله ولكنا نكتفى بما أسلفنا فيما سبق، والنفوس الطاهرة، مقدماته طعنا أو نقضا أذعنت للحق، وما يأتيها بعد ذلك لا يزرع العقيدة فيها ولكنه يقويها وينميها ويزيدها إيمانا إلى إيمانها. والنفوس المخبئة والعقول الملتوية شأنها ألا تتقنع مهما سقت لها من الأدلة وأقمت لها من البراهين الواضحة وضوح

الشمس في رائعة النهار (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ووَعَلَىسَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ونريد أن ننتقل بك إلى بيان أثر القرآن في حياة الفرد وحياة الأمم، وإلى الخير العظيم، الذي أفاضه على العرب الذين لم يكن لهم ملك كملك جيرانهم من الفرس والروم.

نزل القرآن على مُحَمَّد ﷺ بعد أن لبث في قومه أربعين سنة أي بعد أن بلغ أشده واستوت فوته وتكونت طباعه وتبين اتجاه ميوله، نزل عليه وهو بين قومه كواحد منهم لم يعرف عنه أنه خطيب مصقع أو شاعر نابه أو زعيم قائد إنما عرف بينهم بأنه شريف النسب طاهر الذيل. اشتهر فيهم بالأمانة والصدق إلى صفات أخرى من هذا الوادي فماذا ترى في نفس بلغت الأربعين، أترى أن تأديبها، وتهذيبها، وتغيير عاداتها وأخلاقها أمر هين وقد تصلبت العادات وأخذت في النفس مجرى يتعسر تحويلها عنه.

لو أن هذه النفس عنى بتكوينها وتربيتها من الصغر لكان لنا أن تنتظر منها ثمر تلك التربية في الكبر ولكن ما زرعنا فيها شجرا حتى تقطف منها ثمرا ولكنها تركت غفلا حتى صادقتها عناية الله ونزل عليها غيث الوحي فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

فاجأتنا بما لم يكن في الحسبان وبما لا ترقيه منها في مثل هذا الأوان، وبما لم نعهد مثله بعد أن مضت سن التكوين والتربية والتهذيب، تغيرت هذه النفس تغيرا كليا فبعد أن كانت لا تحدث نفسها بزعامة قبيلة– إذ لم يعرف ذلك عنها– أصبحت تنادى على رءوس الإشهاد: أنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، انى رسول الله وخاتم النبيين وديني قائم إلى الساعة وكتابي محفوظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أني لا أرضى بجهالات قومي، ولا بأصنام يعبدونها، ولا بأوثان يقدسونها ولا بحروب يقيمونها لحمية باطلة وأنفة كاذبة إنما هي خطة جديدة وطريقة رشيدة أدعوكم لسلوكها، فأما أجبتم فالملك لكم في الدنيا والسعادة في الأخرى وإما عصيتم فذلة في الحياة، ومهانة وسعير في دار آتية ورا مساعه قائمة لا تبقى ولا تذر، تبدل فيها الأرض غير الأرض والسموات، تدك فيها الجبال دكا وتصير هباء منبتا، تجعل الأرض صعيدا جرزاً، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.

ما هذه الدعاوى العريضة، وما تلك التخيلات الواسعة وما هذا الذي يحدثنا عن المستقبل، ومتى تكلم مُحَّد وادعى حتى يرمى بتلك التخرصات، ويدعي العلم بخبر الأرض والسموات، ما

عهدناه إلا رجلا صامتا مشتغلا يطلب العيش في رعى غنمه، والتجارة في مال غيره.

ما هذا الذي غير نفسه في لحظة .. أجن جنونه، أتحدثت إليه الشياطين، أصابه مس من الجن، ماذا دهاء، ماذا عراه؟ ماله ؟ كلا، ما أصدر عن جنون وكلمه معقول، وإن هو إلا الحكمة تتفجر من نواحيه، ما تحدثت إليه الشياطين وهو يتحدث بما به صلاح أهل الأرض وما به يقوم الملك، وما ينهج به العالم نهجاً جديدا في تقويم أخلاقه وتخير أعماله، ما أصابه مس من الجن، وأنت إذا جالسته سمعت منه كلمات معدودة صدرت عن فكر عميق، وعقل رزين ما عرته غاشية أضلته طريق الصواب، ما دهته نائية أرضية أو سماوية تركته في غفلة وذهول أو خلقت له علة ومرضا فالجسم منه صحيح والعقل منه موزون، والرأي حصيف والكلم حكم

لا لا.. لم يكن شيء من ذلك بل أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، أنطقه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنطقه بالقانون العام وروح الهداية الشاملة، أخرج من فمه نورا ربانيا يضئ للعالم الطريق السوى، ويعرفه مواطن الشر فيتجنبها، وطرق الخير ليسلكها

أنزل عليه كتابا يدرسه ويقرؤه ويكرره ويتدبر في آية ليربي به نفسه ويهذب به خلقه ويسمى مبدأه، ويعلى أغراضه ويجعله أهلا للقيادة العليا والدعاية الكبرى والإمامة للناس قاطبة– ولقد كان لرسول الله ﷺ كل ذلك، فما خلق في القرآن الا كان له خبر مظهر فكان عادلا محسنا برا رحيما ثبتا صبورا حامدا شكورا، حكيما في دعوته بداها بالكلام سرا ثم صدع بأمر الله جهرا ثم أصناف إلى لسانه سيفه ولكن لم يستعمله إلا بعد أن أوذي في سبيل الله وأخرج هو وصحبه من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. لم يستعمله الا إذا أخلقت وعوده أو نقضت عهوده أو اعتدى عليه أو على أحد من أنصاره

وكان ﷺ وفيا أمينا شجاعا رزينا سهما كريما عفيفا قنوعا رضيا بكل ما وصل إليه من متاع هذه الحياة بل راضيا بالبأساء والضراء متى كان ذلك في مرضاة الله وفي سبيل إعلاء كلمته حريصا على نشر الدين بكل ما ملك من قوة وكادت نفسه تذهب حسرات على قومه الذين لم يتقبلوا خير جاءهم به من عند الله وهو شرف لهم وذكر (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) إلى غير ذلك من الأخلاق العالية التي إن أردت المزيد منها فعليك بالقرآن فما خلق فيه إلا والرسول متخلق به كما قالت السيدة

عائشة لما سئلت عن خلقه قالت كان خلقه القرآن

فأعلى النفوس آدابا وأخلاقا نفس مُحَمَّد التي أدبها وبها فأحسن تأديبها فهو المثل الأعلى لمن رام متانة في خلقه وكمالا في أدبه وهو كما قال له ربه (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وكما علمه القرآن وهذبه أعلى نفسه عن سائر النفوس حتى رأتها أهلا لما لا يستطيع غيرها فتصدت للإرشاد العام وجدت في تكوين أمه على أمتن ما يكون من أسس الاجتماع وأصول العمران جمعها من شتات وكونها من أوزاع أشربت قلوبهم حب الحروب وأورثوا الحمية في الحق وفي الباطل كون تلك الأمة أولا تكوينا خلقيا فربي نفوسهم وهذب أرواحهم بالوحي الذي أنزل عليه وبالظهور لهم مظهر الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، فتغيرت تلك النفوس وتحولت أخلاقها، وعلت مبادئها، وطهرت منها الأرواح وزكت وقويت فيها الإرادات ونمت، فالتفت هذه النفوس الطاهرة حول ذلك المثل الأعلى، وأحكموا الصلة بينهم وبين ربهم الذي من عليهم بكل شيء في الحياة وكانت أكبر منه لهم بعث مُحَمَّد فيهم رسولا يحمل كتاب الله المقدس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم به صراطا مستقيما فلما استحكمت صلتهم بالله بما كانوا يقيمونه من عبادات في نهارهم وفي جوف ليلهم، ومكنوا صلتهم

بإمامهم ونبيهم رجعوا إلى نفوسهم فاحكموا العلاقات فيما يبنهم بما كانوا يرسمونه من معالي الأمور ويسلكونه من طيب المعاملات فكان خلق المحبة والإيتار في هذه النفوس من أنبل صفاتها وأكرم أخلاقها وكانت شجاعتهم النفسية في تحمل المكاره في سبيل المبدأ الجديد الذي اعتنقوا أقوى شجاعة، ولست أريد الساعة أن أحدثك عن الشجاعة في حروبهم فذلك له موطن آخر ..

فلما صفت نفوسهم وتكونت خير تكوين وحسنت صلتها بالله من له جنود السموات والأرض وبإمامهم مُحَمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وبإخوانهم من المؤمنين وأصبحوا وحدة عامة وكتلة قوية يرعاهم الله بعنايته، ويقودهم مُحَمَّد برسالته ويعززونه وينصرونه بنفوس عالية وأخلاق زاكية لما اكتمل لهم ذلك وهو العمل الأولى في بناء الأمم بناء مبنيا على دعائم لا تزعزعها تراتب الأيام وسدمات الدهر.. سار بهم إلى بناء الملك وكون بهم تلك الدولة الإسلامية التي بهرت العالمين.

٨- أثره في الأحوال الخلقية

لصاحب العزة محمَّد جاد المولى بك

لما كان المنزل هو المربي الأول الذي يتعلم فيه الإنسان الآداب الخلقية ويألفها أوجب القرآن الكريم طاعة الوالدين: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"

ولم يرخص في عصيانهما إلا إذا أرادا أن يحملاه على الإشراك بالله: " إِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا"

هذا الاحترام العظيم للوالدين هو الأساس الذي بنيت عليه فضيلة الطاعة لأولياء الأمور. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ" وليسر المراد بأولي الأمر الحكام فقط بل يشمل كل من أعطى سلطانا ونفوذا، يشير إلى ذلك قوله ﷺ: "كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته"

ومن هذا يتبين أن دين الإسلام يطالب الناس جميعهم بالطاعة لمن فوقهم ليجتث بذلك أصول الفوضى والمخالفة ويثبت دعائم الطاعة..

بنى القرآن الكريم الأخلاق على فضيلة واحدة "التقوى" وقد دل تصفح الآيات الكريمة التي وردت فيها هذه الكلمة وما اتصل بها من المشتقات على أن المراد منها أن يتقى الإنسان كل ما كان فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره، لتكون حدود المساواة قائمة في المجتمع الإنساني لا تحصل فيها ثلمة ولا يطرأ عليها وهن: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" وقد جاء في الحديث: "لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى"

والآية صريحة في أن الغاية الاجتماعية للناس: شعوبا وقبائل هي التعارف وتلك كلمة لا تشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ولا يمكن أن تدخل في مدلولها رذيلة اجتماعية. وفي هذه الآية الكريمة أقام القرآن الأساس الخلقي العظيم فجعل أكرم الناس المتساوين في الحالين الفردية والاجتماعية هو أتقاهم أي أعظمهم خلقا لا أوفرهم مالا ولا أكثرهم رجالا ولا أثقبهم فكر أولا أعظمهم علما ولا شيئا من ذلك مما لا يصح أن يكون سببا

للتفاضل إلا في إدبار الدول واضطراب الاجتماع وفساد العمران

فالحقيقة أن التقوى هي الخلق الكامل، ومن أجل ذلك كان العدل في رأى القرآن أقرب شيء إلى التقوى إذ يقول الله جل شأنه: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى "

وقد رد القرآن مظاهر التقوى إلى ثلاثة أشياء: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله وهذه الأشياء الثلاثة هي المبدأ والنهاية لكل قوانين الأدب والاجتماع قال تعالى: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ "

والمعروف، كل ما يعرفه العقل الصحيح حقا، ولا يتأتى الأمر بالمعروف إلا إذا توافر استقلال الإرادة، وقوتها. والمنكر: هو كل ما ينكره العقل الصحيح، ولا يمكن النهى عن المنكر. إلا باستقلال الرأى وحريته. والإيمان بالله هو الاعتقاد بوجوده ووحدانية. ولا يتم ذلك إلا إذا خلصت النفس من أسر العادات والأوهام بالنظر والفكر في مصنوعات الله، وهذا هو الإيمان الذي يبعث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع. التي تبترى الناس من ضعف الطباع

الإنسانية كالجبن والنفاق وإيثار العاجلة وما إليها.

فإن هذه الصفات لا تتحقق مع صحة الإيمان بل هي أنواع من العبادة للقوى والمستبد، وللشهوات والنزعات وما شابهها وذلك لا يتفق والإيمان الصحيح بالله.

ما تدبر أحد القرآن إلا وجده يمنح كل إنسان إرادة اجتماعية أساسها الحرية "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"

" فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ".. ولذلك لما اتخذه الجيل الأول في صدر الإسلام مثالا لهم، واتخذوا آدابه الخلقية شعارهم حقق لهم هذه الإرادة الاجتماعية. ولو أن العلوم كلها، والفلسفة وأهلها كانت لأولئك العرب مكان القرآن ما أغنت عنه شيئا. لأن الفضيلة العقلية التي أساسها العلم لا توصل حتما إلى الإرادة العملية.

أما الفضيلة الخليقة التي جاء بها القرآن فإنها تسوق إلى الإرادة العملية لأن هذه الإرادة مظهرها ولا سبيل لظهورها غير العمل، ومتى صحت إرادة الفرد واستقلت له وجهته في الجماعة. فقد صار بنفسه جزءا من عمل الأمة، والأمة التي تتألف من مثل هذا الفرد تشغل مكانة سامية في تاريخ الاجتماع.

والتأمل في القرآن الكريم يرى أن جميع آدابه، وعظاته ترمى إلى بث الروح الاجتماعية في نفوس أهله ، فكانت هذه الروح هي السبب الأول في انتشاره، حتى بين أعدائه الذين أرادوا استئصاله كالتتار والمغول وغيرهم ممن اشتدوا عليه ليخذلوه. فكانوا بعد ذلك من أشد أهله في نصرته والغضب له.

ليس للقرآن طرائق للدعوة إليه إلا الأسوة: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ". فالأسوة أو القدوة مظهر آدابه، ولذلك كان كلما وجدت طائفة من أهله، وجدت الدعوة إليه، وإن لم ينتحلوها ويصلوا لها، وما استحث أحد بالعطايا. لأنه الدين الطبيعي للإنسان تأخذ فيه نفس عن النفس بلا وساطة، ولا حيلة في الوساطة

وما أفصح ما ورد في صفة القرآن من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل".

٩- نبع العلوم

للأستاذ الشيخ حسين خليل شمس الدين

يابـن العروبـة سـر فأنـت الأسـبق

بطريــق مجــدك فالنجــاح محقــق

هــذا هــو القـرآن نـبراس الهــدى

دستورك الأسمى المنير المشرق

آياتـــه نبـــع العلـــوم جميعهـــا

مـن قـال: لا: فهـو الغبي الأخـرق

علم الطبيعة والحياة وحكمة ال

إيجـــاد مــــن نبيانـــه تتـــدفق

وسياســـة الـــدنيا بأقـــوم شـــرعة

بــين الــورى بســواه لا تتحقــق

فيــه القضــاء لحــل كــل قضــية

عـن حلهـا أهـل السياسـة أخفقـوا

في كــل يــوم نقضــهم مــا أبرمــوا

بالأمــس والقــرآن قــاض ينطــق

قــل للفلاسـفة أرجعـوا بعقـولكم

عفـوا أولى الإلبـاب لا تسـتثقلوا
في ســاحل القــرآن. لا تتعمقــوا

غوصــوا بحــار النــور مــن آياتــه
القـــرآن فـــالقرآن روح يعشـــق

عـودوا إلى القـرآن عـودة باحـث
تســتخرجوا درر الحيــاة وترزقــوا

وخــذوا دســاتير الحيــاة جميعهــا
تـرك الهـوى. والعقـل حـر مطلـق

فهـو الـدواء لكـل أدواء الـورى
مـن آيـه وعلـى الخليقـة أشـفقوا

فــالغرب لمــا ســار ســار بنــوره
وهـو الطبيـب لكـل سـقم صـدقوا

يا فتيــة الــذكر الحكـيم إلى مــتى
وعلا وقبل الغرب سار المشرق

لسم على القرآن إن لم تنهضوا
هــذا التــأخر والأعــاجم حلقــوا

وتجددوا عهد الرسول وتصدقوا

لستم على القرآن إن لم تعملوا

بأوامــر القــرآن: يا قــوم اتقــوا

لسـتم علـى القـرآن إن لم ترفعـوا

علــم الشــريعة والنجــوم نســفق

يا قــوم أحمــد عــودة لكتــابكم

فهــو النجــاة، وأن أبيــتم تفرقــوا

يا قــوم أحمــد مجــدكم قــرآنكم

فهــو الكتــاب العلــي الأصــدق

الفهرس